فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق)

(مصر — ١٦ رجب سنة ١٣٢٣ — ١٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٥)

تتمة سيرة الاستاذ الامام

نموذج من كتبه وترسله

كتب من بيروت سنة ١٣٠٢ الى صديق عالم في بعض البلاد وفيه من الحث على احياء دين الله ، والاهتداء بكتاب الله ، مالا تجد مثله في كلام ، الا ان يكون لمثل علي عليه السلام ، قال رضي الله عنه

السلام عليكم تحية أخ يهزه التشوق اليكم ، وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك وتشممت منه ريح الحمية ، والنعرة الدينية ، وأرجو ان تصل بك بدايتك الى مايختار الله لك من حسن النهاية ولم يكن ظني في همتك ، دون ماتبينت في عبارتك ، فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على دينك ، وحركة ميلك للاخذ بيده ، وتقويم أوده ، فانما هو الدين المتين الذي أطلق العقل من قيده ، وأخذ على الوهم في كيده ، وهز النفوس الى نيل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل ، حتى ساد به الضعفاء وذلت لسلطانه الاقوياء ، وسبق وعد الله بأن يظهره على الدين كله ، والله

منجز وعده لاهله ، وانما خلقنا الله وكلفنا صرف همومنا اليه ، وتعويلنا في شؤوننا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا ، الا ما نبذله في تأييد ديننا ، ولا حاجة لله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب

داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ، ومواعظه وعبره ، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي وحاذر النظر الى وجوه التفاسير الا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه ، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله ، ثم اذهب الى ما يشخصك القرآن اليه ، وأحمل نفسك على ما يحمل عليه ، وضم الى ذلك مطالعة السيرة النبوية وقافا عند الصحيح المنقول ، حاجزا عينيك عن الضعيف والمبذول ، (*) واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله ، وما ركبوا من المتاعب ، وما احتملوا من المصاعب ، على ما تعلم من درجة قربهم الى الله وغفرانه لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ، واجعل عيشك للآخرة واستعد لما وعد فان سعادة أبدية ، لا تنال الا بسيرة محمدية ، ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممهد ، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، لا مزاد بنك كانت لك والا كانت عليك ، وأرجو ان يكون كل سعيك خيرا يجعله الله نورا يسعى بين يديك ان شاء الله

اما ما ذكرت من مسألة الشيخ ... فبودي لو توجه الى الله كل مسلم ، واعتصم بحبله كل مؤمن ، فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ما ذكرت ، ومن علو المنزلة على ما بينت ، فان تيسر لك السبيل فتقدم

(*) يريد بالمبذول تلك الموضوعات التي ينبذها روح الدين وتأباها قواعده العامة ونصوصه القطعية

لدعوته (أي إلى الاعتصام) وادخل اليه ابتداء من طريق لا يعرفه وتلطف له في القول وان شئت أطلعته على شيء من مقالات العروة الوثقى فاذا انتهيت به الى ما يعرف وآنست منه الميل والرضاء فإما ان يكتب إليّ وإما ان يستعد لتلقي كتاب مني ثم سراع إليّ بالخبر الخ

وكتب منها الى علم كبير في بعض البلاد في ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

أشد ما أجد من فراقك ، حرماني من محاضرة آدابك . والاقتباس من نوادر فضلك ، وتعرّف الصواب من صائب رأيك ، وإنما يخفف ألم البعد منك أن أكون بمكان من فكرك ، وأصيب حظا من مراسلتك ، وجدير بكرمك ان تصل واصلا ، وتجيب سائلا ، وسلامي عليك وعلى أنجالك الصالحين ، والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام اه

فانظر كيف كان إحياء الدين وهم المسلمين والسعي في إصلاحهم مما يدخل في كل أقواله ، كما كان مسيرا له في جميع أحواله ، فهل تزن بمثله من ليس لهم حظ من الدين ، الا الأكل به من السوقة والفلاحين ، لا يهمهم الا التحلق حول الموائد ، والتطواف لجمع النذور «والعوائد»

قوة عقله وسعة علمه

يصف الناس كل نابغ بالذكاء الفطري ويعنون به سرعة الفهم وسهولة الحفظ ولذلك كنت تجد الناس مجمعين على وصف الاستاذ الامام بالذكاء النادر ، لا يختلف في هذا منصف ولا مكابر ، أما هو فكان يقول عن نفسه إنه متوسط في الذكاء وانه يوجد في كل مئة رجل ٧٠ رجلا مثله في فهمه . وعلى هذا كان يجب ان يكون ثلاثة أرباع الناس أو طلاب العلم منهم خاصة مثله ولكن الناس لم يروا في الملايين الكثيرة مثله وانك لتسمع

كثيرا من أهل الفضل يقولون ان الدنيا انما تلد مثل هذا الرجل في كل عدة قرون مرة وقالوا بعد موته ان الفراغ الذي حدث بفقده لا يملأ أحد في هذا العصر . وقد واجهناه في قوله ان ثلاثة أرباع الناس يساورونه في ذهنه وقلنا له كيف تحصل في الزمن القصير من العلم مالا يحصلونه في الزمن الطويل فقال ان الفرق بين الناس في هذا لا يأتي من الاختلاف في الذهن فقط وانما يأتي معظمه من الاختلاف في توجيه الارادة الى الشيء ومعرفة طريقه وغايته قبل طلبه . وهذه حقيقة لا مرية فيها ولكنها لم تذهب بامتراثنا في ان قوله ذلك من المبالغة بمكان وان كان قاله اعتقادا لا تواضعا وهضما لنفسه . على اننا نعرف من أصحاب الذكاء المدهش من كان ذكاؤهم وبالا عليهم خاصة أو عليهم وعلى كثير من الناس الذين يعرفون : فالعبرة بما قال وهو ان ادراك المقاصد انما يكون بصحة توجيه الارادة اليها وطلبها من طرقها الطبيعية

بلغ هذا الرجل من قوة العقل ان عجزت الأمراض الشديدة عن منعه المطالعة فكان يقرأ في أيام مرضه أكثر مما يقرأ في صحته التي تشغله فيها الأعمال . أتظن انه كان يقرأ كتب القصص والفكاهات ؟ كلا انما كان يقرأ العلوم العقلية والفلسفة وكتب التربية والتاريخ . وقد رأيته من مرضه الاخير ملله فيه من المطالعة وقال انه لم يعهد ذلك في مرض قط فقلت له هكذا شأن أمراض المعدة على ان كثرة الاعمال العقلية هي السبب الفعال في مرضك هذا كما يقول الأطباء .. ولم يكن المرض يومئذ قد اشتدت وطأته

وقد أصيب بحمى التيفوس مرة في بيروت فبلغت نهاية شدتها وأعيى

حراوتها ولم يغب عقله ولم يهذ لسانه حتى قال الطبيب الذي كان يعالجه انني لم أر مثل دماغ هذا الرجل ولو حدثت عن مثل ما رأيت منه لما صدقت . وكذلك قال بعض الأطباء الذين زاروه قبل موته بأيام قليلة فقد دب السم في جسمه وعقله حاضر وذاكرته تملي على لسانه الأجوبة السديدة في وصف مرضه لمن يسأل عنه . وقد اتفقنا نحن الذين كنا نلازمه على ان لا نحدثه في البلد ولا مسائل العلم والاجتماع وان نمنع عائديه من الحديث في ذلك لا سيما بعد اشتداد المرض عليه ولكنه كان ينتقل بنا من الفكاهة الى الجد فاذا سابقت شجون الحديث مسألة عويصة أو عبارة اجتجب معناها ، أسرع ذهنه الى كشف الحجاب عن الخفايا فجلاها ، ونفث في عقدة العويص من عراها ،

أذن لنا بذكر الشعر والادب في يوم توالت فيه نوبات الألم فكان مما أنشده حافظ ابراهيم من مختار محفوظه قول بشار :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وقال اني أنشد هذا البيت منذ سنين وأنا لم أفهمه وسألت عنه غير واحد من الادباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح اليه النفس فلم يلبث الامام ان قال ، والالم ينال من كبده ما ينال ، ان معناه ظاهر فانه يريد انهم اذا غضبوا سلوا سيوفهم وأشرعوا رماحهم فكان بريقها ولمعانها هتكا لحجاب الشمس الى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم فتخرج وهي تقطر دماء وتسيل مهجا ، هنالك يخفى ذلك البريق واللمعان بستر الدم له ورينه عليه . فالضمير في قوله قطرت دما عائد الى السيوف أو الرماح وان لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقرينة أي على حد قوله تعالى « إني أحببت حب

الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب » على التفسير المشهور

ناهيك بمن كان يقتل عامة نهاره وزلفا من ليله بحل المشكلات وإمضاء الأعمال في مهامه كثيرة ولا يشكو تعبا ولا يخاف مللا ، كان يصبح فيغدو الى مجلس الشورى مثلا فيجلي المسائل الموضوعة للبحث سواء كانت قضائية أو إدارية أو مالية ويؤلف بينها وبين مصلحة البلاد ويؤيدها بالحجج القانونية والعقلية التي تقنع الحكومة بعد اقتناع الاعضاء ثم يخرج من هذا المجلس فيأكل طعام الغداء ويذهب الى الازهر فان كان اليوم يوم جلسة الادارة جلسها وعمل فيها عمله ثم ينتقل الى مكتب الافتاء حيث كان ينتظره أصحاب الحاجات المختلفة في جميع مصالح الحكومة وغيرها والمستفتون والزائرون وكتاب الجمعية الخيرية والازهريون من علماء ومجاورين فينظر في هذه الأمور الى مابعد العصر ثم يخرج الى ديوان الاوقاف ان كان اليوم يوم جلسة المجلس الاعلى أو الى مجلس ادارة الجمعية الخيرية ان كان اليوم يوم جلسته ثم يعود عند الغروب الى الازهر فيقرأ الدرس فيخرج بعد العشاء قاصدا داره فيجد الغفاة وأصحاب الحاجات ينتظرونه في المحطة وفي البيت يعرضون عليه حاجاتهم وبعد هذا كله لم تكن تخلو داره ليلة من السامرين يتكلمون في العلم والادب والمصالح العامة والخاصة . ولا تنس ان الايام التي لم تكن موعد الجلسة في تلك المجالس الرسمية هي التي تقرأ فيها أوراق تلك المجالس ، ولكنه كان على ذلك العقل الكبير والعرفان الغزير كثير النسيان للأمور الجزئية لاسيما أسماء الاعلام حتى انه نسي اسم نفسه مرة . ذهب لزيارة صديق له فلم يجده فسأله البواب عن اسمه ليخبر مخدومه به فتوقف الاستاذ في الجواب ذهولا عن اسمه فقال الخادم أقول الشيخ

محمد عبده : قال نعم فأنت اعرف باسمي مني

أتقن جميع العلوم الاسلامية وضرب بسهم في العلوم والفنون العصرية قبل تعلم اللغة الفرنسية وقد أتقن هذه اللغة في سن الكهولة وتوسع بها في العلوم على طريقة الافرنج وكان يعني بالعلم على قدر الحاجة اليه في العمل والاصلاح . فأما علوم اللغة العربية فقد بلغ منها ان كان ادق الناس فهما للقرآن ، ولغيره من فصيح الكلام ، وأبلغ الكتاب بلا منازع ، وأخطب الخطباء بلا مدافع ، وأما العلوم العقلية فقد ارتقى فيها الى أن كان فيلسوفا حكيما اعترف له بذلك من يعتد بمعرفتهم . ونذكر هنا تفسيره لكلمة فيلسوف . حدثنا في طرابلس الشام قال كنا في مجلس بعض الوجهاء بمصر وكان في المجلس بعض أهل العلم وجملة الاعلام من السوريين . فقال ما معناه ان الناس قد ابتذلوا لقب فيلسوف فصاروا يطلقونه على غير أهله وكان أطلق هذا اللقب في جريدة على بعض الحاضرين فجرى هنا كلام في معنى كلمة فيلسوف قيل الفيلسوف هو الذي يتقن جميع العلوم قال الاستاذ اذاً لم يوجد فيلسوف في الارض قيل هو الذي اتقن بعض الفنون وله إلمام بسائرها قال ان جميع الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون على إلمام بجميع العلوم العصرية ويتقنون بعضها فما أكثر الفلاسفة في المهندسين والأطباء وفي التلامذة أيضا . ثم قال بعد كل مقال : الفيلسوف هو الذي له رأي ومذهب في المعقليات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه

وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماما مجتهدا وان كبرت هذه الكلمة عند الذين سجلوا على أنفسهم الحرمان من فضل الله على المتأخرين ،

وإبانتهم من العلم والفهم ما آتاه المتقدمين ، وناهيك بفهمه في القرآن ووقوفه على أصول الشريعة وحكمها واسرارها وقوة حجته في إثبات مقاصدها ودفع الشبهات عنها وتطبيق أحكامها على مصالح البشر . ولست أعني بكونه إماما مجتهدا في الشريعة انه صاحب مذهب دونه أو كان يريد أن يدونه وانما أعني ماذكرت آنفا من فهمه الدين أصوله وفروعه بالدلائل والبراهين والتفقه فيه والوقوف على حكمه والقدرة على بيانه بدون تقليد عالم معين من العلماء السابقين والأئمة المهديين الذين اتبع آثارهم واهتدى بهديهم . وكان يرى ان من يضع للناس مذهبا جديدا فانما يزيدهم عمى وجهلا وتفرقا واختلافا

أخلاقه وشمائله

الأعمال ثمرات الأخلاق فاذ كرناه من أعمال الرجل تمثل بعض أخلاقه لانها بعض آثارها وان وراء ذلك من أحاسن الخلال ، وآيات الكمال ماتقصر عن تمثيله جلائل تلك الأعمال ، ولقد كملت للاستاذ الأمام أصول الفضائل الأربع ، وما نشأ عنها وتفرع ، وانما نشرح بعض أخلاقه لتكون قدوة للمقتدين ،

طبع الله هذا الرجل على عزة النفس وعلو الهمة من أول نشأته وقد أدركه السيد جمال الدين الذي درج في حجر السيادة وترعرع في بيت الامارة وهو مجاور في الأزهر ومنقطع إلى التصوف يلبس قميصا يبدو من أعلى جيبه صدره الاشعر وقد أرسل جمة كجمة الدراويش فراعه من صاحب هذا القشف ماعنده من العزة والاباء وحفظ الكرامة ورقة شعور الشرف وأكبر ان يكون هذا أثر التربية والتخلق في بلاد ساسها الظلم وتحكم فيها الجور المذل للنفوس وكأنه سبق إلى نفسه أن هذا أثر وراثة

لأحد آبائه الاولين ، وانهم لابد ان يكونوا من الملوك والحاكمين ، فقال له مرة : « قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت » : وهذا الخلق هو ركن الفضائل الركين ، وناهيك بقول الله تعالى « ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » ، وهو الباعث على تلك الأعمال ، والحامل على الاستهانة بما بين يديها من الاهوال ، وقد يشتبه على كثير من الناس هذا الخلق الكريم ، بخلق الكبر الذميم ، ولذلك كان بعض الجاهلين ينبز الاستاذ الامام بهذا اللقب لا سيما عندما كانوا يرونه مترفعا عن الدهان والتملق للكبراء ، معرضا عمن يعارضه في مقاصده وان كان من العظماء ، ولو عاشروه ناظرين بعين الانصاف لرأوا حقيقة التواضع مع الرفعة كيف تكون . لرأوا كيف كان ذلك الرجل العظيم يخدم الفقير والمسكين ، ويتجافى جنبه عن مضجعه لاجل العفاة والمستفيدين ، ومن دقائق ملاحظته في التواضع انه كان يتحامى صيغة الطلب الجازم في مخاطبة أصدقائه ومحبيه ، بل وتلامذته ومريديه ، فيستبدل بالأمر الاستفهام والتخيير ويوسع للمخاطب العذر قبل أن يحتاج الى الاعتذار ثم اذا أخلف معه يتناسى فلا يقابله بلوم ولا عتب . أذكر من لطائفه في هذا الباب قوله لي مرة : اني أكون غدا في مكان كذا بعد الظهر فان ذكرت ذلك ووجدت فراغا وأحببت أن تجيء فعلت : ذكر كل هذه القيود وأنا اعلم انه يريد ان أوافيه حتما ولولا ذلك لذكر لي أنه يكون في ذلك المكان ولم يزد كعادته معي إذ كان يخبرني بمواقيته

وقد عرف رحمه الله تعالى بسلامة الصدر وصفاء القلب والحلم والصفح فما انتقم من مسيء ولا سعى في ضرر أحد قط بل كان يحسن

الى من أساء اليه اذا استنجده أنجده ، واذا استرفده أرفده ، وان عاد الى الاساءة سبعين مرة . وكان أهل الخبث والمكر من حاسديه يظنون أنهم يخدعونه بدهائهم ودهائهم ولكن فراسته كانت تخترق صدورهم ، وتنفذ الى سواد قلوبهم ، ويقرأ في صحائف وجوههم الاولى ، ماوسم على صحائف وجوههم الاخرى ، وانما يقبل منهم ما أظهروا ، ويتغابى عما أضمروه ، عملا بما ورد في الخبر « إصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله فان اصبت أهله فقد أصبت أهله وان لم تصب أهله فأنت من أهله » وكان يعجبه قول أفلاطون : استصلاح العدو أحزم من استهلاكه :

نعم كان يغلب عليه حسن الظن وبذلك رفع أناسا الى مراتب لم يكونوا أهلا لها والناس يعدون ذلك عليه ويغفلون عن عذره فيه وهو ان من رفعهم ورقاهم كان لا بد للاعمال التي رقاهم اليها من عاملين فحسن الظن ببعض من يمكن ان يعهد اليهم العمل وناطه بهم فمنهم من ظهر بالاختبار ان ظن الخير فيه صادق فكان صالحا للخدمة شاكرا للصنيعة ومنهم من ظهر بعد التجربة لؤمه ، وتبين فساده وشؤمه ، فلم يصلح عملا ، ولم يشكر محسنا ، ومن هذا الفريق من أساء الى من أحسن اليه ، وكفر حقوق المنعم عليه ، ومنهم من أظهر الوفاء ، في وقت الرخاء ، وأظهر حقده وضغنه ، عند الضراء والمحنة ، وليت شعري ماحيلة الرجل الذي جبلت طينته على الاحسان ، وتوجهت همته الى الخدمة العامة ، وقد نشأ في قوم فشا فيهم فساد الاخلاق ، وقل فيهم الوفاء والاخلاص ، أيمكن ان يقال له لا تسد الى أحد معروفا ، ولا تسع الى أحد بخير ، إلا بعد ان تجربه عدة سنين ، فتعلم انه من المصلحين والشاكرين ؟ كيف وانما يجرب الرجل بما يعهد اليه من الاعمال ،

وما يعامل به من البر والاحسان ،

على أني لا أنكر انه كان لسلامة قلبه يفيض أمام بعض من يعتقد إخلاصهم بما لا تسع عقولهم ، ويفضي إلى بعضهم بما تضيق عنه صدورهم ، وانه كان لمبالغته في الحلم يعفو عمن لا تعفو المصلحة العامة عنه ، ويصفح عمن يقتضي الاصلاح بالانتقام منه ، وقد كان يكون هذا العفو والصفح مما يخفى على من عفا وصفح عنهم ، كما كان يخفى الانتقام لو انه انتقم منهم ، ولعله لولا هذا الخلق لكان نجاحه أسرع وأتم ، وإصلاحه أشمل وأعم ،

وكان من الكمال في الوفاء لأصدقائه ، والغيرة على أحبائه ، بحيث يهتم بشأنهم في السر والجهر والبعد والقرب والغيب والشهود بمثل ما يهتم آباؤهم وأبناؤهم او أشد وكثيرا ما تراه يسعى في دفع الشر عنهم وفي سوق الخير اليهم بأشد مما كانوا يسعون لأنفسهم . وما من صديق ولا محب له وإلا وكان آمنا من انحرافه عنه ، بل من توانيه في الانتصار له ، تأثرا بقول واش محال ، أو رهبته من كيد قوي ذي محال ، أو طمعا في جاه أو مال ، وقد كان في وفائه هذا خير قدوة لمباشريه والمتصلين به يربي نفوسهم بأخلاقه وسيرته ، كما يربي عقولهم بعلمه وحكمته ، فيريدوه ويحبوه أشد الناس وفاء لمن يحبون ، وأعظمهم إخلاصا لمن يصطفون ،

وقد كان على ما علمت من صفحه عن الأعداء ، وكمال الوفاء للاحباء ، والاحسان لأولئك وهؤلاء ، لا يخاف في طريقه الى الاصلاح عدوا مبينا ، ولا يعتمد فيه على الصديق وإن كان ناصحا أمينا ، وانما كان مستقلا برأيه مع الاستشارة ، مستقلا بارادته مع الاستعانة ، واثقا بأن الله يؤيده ويسخر له الناس لإخلاصه لله وللناس ، يستخدم في سعيه كل من

استطاع استخدامه من موافق ومخالف ووطني وأجنبي ولكنه لا يعتمد في قلبه على أحد من الناس ولا يغتر بأحد منهم . كان في الناس من يظن بأن السبب في شجاعته وقوة عزيمته في عمله وقوفه عند الحكومة وإدلاله عليها هو اعتماده على حزبه الكبير الذي يضم جماهير العقلاء والفضلاء والكتاب والادباء ، وفيهم من يظن أن جرأته ومضاءه وإقدامه من ثقته بتأييد الحكومة له والقوة المحتلة من وراء الحكومة . أما هو فكان يعتقد أنه لا حول له ولا قوة الا بالله العلي العظيم وما وهبه من العزيمة والاخلاص . وقد كلمته مرة في هذا فأقسم بالله انه يشعر بأنه في هذا الوجود كالعريان الذي ليس له فيه شيء ، وانه لا يعتمد على شيء الا على الله وهو المسخر لمن يشاء

وكان رضي الله عنه معتصما بحبل الصدق ، متحريا ما يعتقد انه حق ، واذا تذكرت ان علة العلل لفشو الكذب في الناس هي شدة ظلم الحكام ، واستبداد ذوي السلطان ، وأن أكذب الناس أكثرهم قربا من الظالمين ، ومماراة للحكام المستبدين ، علمت أن ملكة صدق اللسان لا ترتقي الا في حجر شجاعة القلب وجرأة الجنان ، ولولا شجاعته لما نادى بمقاومة الاستبداد والاستعباد — كما قال — في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ولما حافظ على رأيه واعتقاده وان خالف العلماء والحكام ، وخالف الجماهير المعبر رأيهم بالرأي العام ،

هذان الخلقان — الصدق والشجاعة — هما شرطان للقدرة على الاصلاح فالكذوب والجبان عدوان لله لا يصلحان لشيء من الخير ولا يصلح بهما شيء . وان التزام الصدق في أمة فشا فيها الكذب ، واعتادت على الدهان والملق ، من أشق الامور على النفوس ، وأبعدها عن طاعة التهذيب ، لما له من

الاثر في احفاظ القلوب ، والتأثير في إثارة البغضاء ، وتكثير سواد الاعداء ، وتنفير المحبين والاصدقاء ، فكيف يتكلفه المتكلف مع هذه المنفرات عنه ، والمرغبات في ضده ، ثم كيف يكون ملكة نفسية ، لا تكلف فيه ولا روية ، لا تحسبن الامر سهلا فان الظهور بمخالفة اهواء العامة مما يجبن امامه الملوك القاهرون ، وينكمش دونه العلماء العاملون ، ولهذا يدهن الرؤساء المرؤسين ، ويدهن المرؤسون للامراء والسلاطين ، فالصدق فيما لا يرضي العامة ، أشد من الصدق فيما لا يرضي الخاصة ، فما بالك بالصادق فيما قد يغضب الفريقين ، والصابر على الطعن من الجانبين ، أليس هو في مرتبة الصديقين ، التي تلي مرتبة النبيين والمرسلين ، ؟

رأيت الاستاذ الامام في النوم بعد موته بأيام فقال لي ان الله تعالى أعطاني مقام الصدق أو قال انني في مقام الصدق فتذكرت كلام الشيخ محي الدين بن عربي في مقام الصدق وحال الصدق ومنه ان صاحب حال الصدق يكون كثير الظهور بالولاية والكرامة كثير الدعوى بحق وصاحب مقام الصدق أعلى وأكمل ويكون في الولاية مجهولا لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف ، وتذكرت جهل الناس بمقام الاستاذ الامام ، في الولاية والعرفان ، احتجابا بظاهره الدنيوي ومعارفه الكونية ، عن مرتبته الروحية ومعارفه اللدنية ، واستيقظت وعلى لساني قوله تعالى « ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر »

ان ما ذكرناه من الشجاعة في التزام الصدق ، والمجاهرة بنصرة الحق ، هو ما يعبر عنه كتاب العصر بالشجاعة الأدبية وانت لا تجهل ان من لا يهاب في الحق وثبات الحكام ، ولا يخاف طعن الخواص والعوام ، فهو

جدير بأن لا يخيفه الحسام ، ولا ترهبه السهام ، كاشفني رحمه الله مرة بكتاب جاءه بغير توقيع يهدده مرسله فيه بالقتل اذا هو ظل مسترسلا في عمل نسب اليه ورأيته غير مبال به ولا مكترث فقلت له ان لك أعداء لا يخافون الله وانك تجيء دارك في الليل وهي في الخلاء بعيدة عن العمران فلو نظرت في ذلك : فقال أو يخاف علي من مثل هذا الكاتب المهدد ؟ انني لم أهنيء نفسي الى الآن بأنه وجد في وطني من تجرأ علي بكلمة «أخطأت» ، وسألته مرة ماذا تصنع اذا هجم عليك لص في الليل أتطلق عليه الرصاص من هذا المسدس - وأشرت الى مسدس معلق بسرير نومه - فقال لا يجوز اطلاق الرصاص في البيت فانه يزعج النساء والعيال وليس عندي للص الا القبض عليه والاخذ بطوق رقبته : وكذلك يفعل

ومن خلائقه الانصاف في الرأي والعلم ، كالانصاف في الحكم ، والبعد عن المكابرة ، في المذاكرة والمناظرة ، فلم يكن يزدهيه الغرور والاعجاب بسعة العلم وكثرة الصواب ، ولا كان يصده الارتقاء عن مرتبة المقلدين ، عن الرجوع الى رأي أحد التلاميذ والمريدين ، بل كان رجاعا للحق اذا ظهر له ، يحترم فهم غيره ورأيه ، وهذا الخلق عزيز في العلماء ، لاسيما ذوي الشهرة والجاه ، ومن طلب آية على هذا فليرجع الى ما كتبه الامام الغزالي عنهم في بيان آفات المناظرة من كتاب العلم في الاحياء . فاذا علم بما كان يجري والعلم حي والامة عزيزة - ومن لوازم ذلك الانصاف - فما ظنه بهذا الخلق في خلف لم يبق لهم من عزة سلفهم الا الفخر بها ، ولا من علمهم الا الحكاية عمن قلدهم فيه ،

من آيات انصاف استاذنا ورجوعه الى الحق ماهو مدون في المنار .

لم ينس القراء ما نشرناه له في تفسير «وأما السائل فلا تنهر» اذ اختار قول بعض المفسرين ان المراد بالسائل من يسأل عن العلم ويطلب التفقه في الدين وذكر فيما كتبه في تفسير جزء عم ان لفظ السائل لم يرد في كتاب الله عنوانا للفقير والمسكين فظن بعض من قرأ ذلك ان قوله يفيد ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى طالب المال . فذكره رجل من عبد البلاد بقوله تعالى « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فحسب انه أخطأ فيما كتب فأرسل الي ورقة صغيرة يصرح فيها بتخطئة نفسه وكلفني طبع عشرة آلاف نسخة منها بعدد ما طبع من كتاب تفسير «جزء عم» لتلصق بنسخ التفسير وأمر الجمعية الخيرية بأن تمسك عن بيع الكتاب حتى تطبع الاوراق وتلصق فرجعت الى الجزء فرأيت عبارته صحيحة الا انها مبهمة ليست كالمعهود في بيانه فراجعته في ذلك ولم أطبع الورقة فعاد الى التأمل في العبارة ورجع الى مسودات تفسير الجزء فتذكر انه ما كتب تلك العبارة في السائل الا وهو ذاكر لما توهموا انه ينافيها من قوله تعالى « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وقوله تعالى « والسائلين وفي الرقاب » ثم كتب ما كتب في إيضاح العبارة واعترف بما فيها من الابهام واستغفر الله من العود الى مثله وقد نشرنا ذلك في ص ٨١٥ من المجلد السابع من المنار فليرجع اليه من شاء

وكان هذا الاوّاب الرجاع الى الحق جبلا راسخا في الثبات والاستقامة لا يرجع عما شرع فيه فكيف يطمع في رجوعه عما طبع عليه، لانه كان لا يقدم على العمل إلا بعد الرّوية والتدبر والبصيرة والتثبت، وقد كان السيد جمال الدين يقول فيه هو كالفلك لا يتغير قال هذا بعد ما غاب غيبته في بلاد

المشرق ثم عاد إلى أوربا ورأى فيها جماعة ممن كان يعرف قد تغيروا عما كان يعهد الا الشيخ محمد عبده فانه لقيه كما تركه

ولا حاجة الى الكلام في جوده وسخائه فانه صار فيه على اكتنامه الصدقة وإخفائه البذل أشهر من علم وعرف الناس كثيرا من البائسين والمعوزة الذين كان يعولهم ويوصيهم بالكتمان . ولم يكن في أيام السراء ، أبسط يدا منه في أيام الضراء ، لقيه صاحب في بيروت فقال له ان والدي قد توفي وليس لدي ما أنفقه في تشييعه فأعطاه كل ما كان يملكه من النقد وهو راتبه الشهري من المدرسة السلطانية كان قد قبضه ولم ينفق منه شيئا ولكن الله أخلف عليه بما لم يكن يحتسب فقد كان له دين عند رجل في مصر يلويه ويمطله به أيام كان يتقاضاه ، وهو يراه فيستحي منه ويخشاه ، فما مر يوم على بذل جميع ما في يده وايثار صديقه على عياله حتى آذنه مصرف (بنك) بيروت بأن حوالة برقية جاءت باسمه من مصر واذا هي دينه على ذلك الرجل « ومن يتوكل على الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » وكان اذا وفر شيئا من النفقة صرفه في سبل البر . كان يدخن بالأنانف المعروفة بالزنبية وبالنارجيلة (الشيشة) ثم ترك التدخين بالمرة وجعل ما كان ينفقه فيه صدقة ولولا بعض أصدقائه لما امتلك من طين هذه الارض شيئا ولا حاجة الى بيان ذلك هنا

لعلي لا احتاج إلى التنويه بغيرته على ملته وأمته فان بذل حياته كلها في السعي بتربية الأمة على آداب الملة لم يكن الا أثرا من آثار هذه الغيرة فالدليل وجودي عملي عرفه القريب والبعيد واعترف به العدو والصديق ولكنني أذكر في هذا الباب شيئا لا يعرف نظيره إلا بعض أصفيائه الذين

لم يغب عنهم شيء من أحواله

جئته مرة في رمضان (سنة ١٣١٥) بعد الظهر على موعد فقيل انه نائم ولم يكن ينام في مثل هذا الوقت بل كان ينام طائفة من الليل ثم يقوم في السحر ويلبث بعد السحور الى أن يصلي الصبح ثم ينام حتى ترتفع الشمس فمكثت ريثما استيقظ فسألته ما أنامه قال ما سماه ارّقني الليلة الفكر في حال المسلمين وما ينزل بهم من البلاء يبعدهم عن دينهم واتباع أهوائهم وشهواتهم وقوي سلطان الفكر فهاج المجموع العصبي ونبهه تنبيها شديدا حتى حدثتني نفسي بأن أنزل الى حيث يكثر اجتماع الناس كالموسكي والازبكية فأقف في الطريق وأنادي أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم من القبيح حتى تركتموه ، وماذا رأيتم فيما اخترتم بديلا منه حتى تقلدتموه ، ثم أخطبهم في حقيقة ما هم فيه ، وأنذرهم عاقبة ما هم عليه ، وأبين لهم طريق النجاة منه ، وقد عاجلت النوم فلم أملك منه شيئا فلجأت الى الكتابة وما مكنت لأكتب في الليل فجرى القلم بفصل جملته آخر فصول رسالة التوحيد فغابت الي بعد ذلك نفسي وران النوم على عيني ولكن الليل قد أخذ بالرحيل فلم أنل منه نيلا فكانت هذه النومة في النهار عوضا عما فاتني في الليل

أقول قد عرف من سبق له قراءة رسالة التوحيد ان الفصل الذي كتبه في تلك الحالة هو الفصل الذي عنوانه (انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ .) ولعمري ان ذلك الفصل لقول فصل ، وما هو بالهزل ، أملاه على كاتبه الالهام ، حتى كاد يكون معجزة من معجزات الاسلام ، وقد قال في أوائله

« ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، اوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من المقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تفجر من صخور الصبر يثبت الله بمنظرها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم فتجري من مناحرهم مجرى الدم الفاسد من المفصود على أيدي الأطباء الحاذقين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون » تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليصدوا نبته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقير للاغنياء ، ولا ناصر له الا انه الحق بين الأباطيل ، والرشد في ظلمات الأضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي فلاحا ، ولا انالهم القصد نجاحا » الخ

وجئته مرة في داره بعين شمس (سنة ١٣٢١) وكان قد وعك غداة يومه فرأيته ينظر في ثلاثة كتب عربية يقرأ المسألة في كل منها فسألته مالك وما هذا الذي تنظر فيه فقال هو التهيج العصبي الذي يلم بي أحيانا من الفكر في الامور العامة وهذه كتب في أصول الفقه ألهو بمباحثها عن

القرآن فانني اذا فكرت فيه رأيت بعد المسلمين عنه فيقوى التهيج العصبي

واما عاداته فقد كان يخالف فيها علماء هذه الديار يخالفهم فيما يكره شرعا أو عقلا كتطويل الأردان وتوسيعها وجر الاذيال فكان زيه أقرب إلى زي علماء سوريا منه إلى زي علماء مصر . وكان يكره أن تقبل يده بل يصافح الناس مصافحة وقد منع الأزهريين عن تقبيلها بعد الدرس كعادتهم وكان يكره ان ينشد أمامه شعر أو يقرأ شيء في مدحه يكره ذلك رأيا وشعورا فيتألم لسماعه وينفر منه . ولما كتب ما كتب في الرد على مقالات هانوتو في الاسلام ونشر ذلك في المؤيد معزوا الى أحد أئمة الاسلام لم يخف على الناس أنه هو الكاتب لاعتقادهم انه لا يوجد في مصر من يقدر على مثل ذلك غيره وقد ذكر هذا أمامه فظهر التغير على وجهه وقال إنه لا يؤلمه شيء مثل هذا لانه إقرار بأن أمته بلغت من الجهل ان انفرد فيها واحد بالقدرة على أداء بعض الواجبات التي كان من الضروري أن يضطلع بها كثير من أفرادها في كل بلد وأي ألم أشد من ألم من يحب ارتقاء أمته ورفعة شأنها وهو يراها بهذه الحال من العجز (قال) ومن البلاء ان يعجز الانسان في هذه البلاد عن التنكر في بعض الخدم التي تقضي المصلحة بتنكر من يخدم الأمة بها . وقد ذكرني قوله هذا قولا آخر له قريبا منه وهو إنني أحب لو يكون في قومي كثير من الناس الذين يفضلونني في كل علم لأن ذلك يعينني على تكميل نفسي بالرجوع إليهم فيما أجهل والاستعانة بهم على ما أعجز ومن أكبر المصائب على محب العلم ان لا يجد من يستمد منه فيقف عليه عند حد بحثه لا سبيل إلى ضم بحث غيره إليه .

(لها بقية)